٣ - الحاج خواجة كمال الدين

(١٨٧٠ - ١٩٣٢)

للأستاذ أرسلان بوهدابوكر

بقلم الأستاذ على محمد سرطاوى

ذكريات محزنة

شاع الحزن فى البلاد الإسلامية عندما وصل النبأ الفزع - مات خواجة كمال الدين - والحملة العنيفة المركزة التى كانت عليه فى إنجلترا قد هدأت، وأخذ الناس فى جميع بلاد الإسلام. ينظرون إليه نظرة الإكبار والإجلال ، وكان الشعور بالحزن بالغا عليه أقصى مداه فى تلك البلاد . . . فتلقت أسرته وإمامة المسجد فى وكنج سيلا من الرسائل التى تفيض بالحزن العميق ، وتعبر عن الخسارة الفادحة التى أصابت المسلمين

أما فى لاهور ، فقد احتشد جم غفير من المسلمين فى قاعة الكلية الإسلامية فى الثامن من كانون الثانى ١٩٣٣ ، ورأس ذلك الاجتماع السر شهاب الدين صاحب ، رئيس الجمعية التشريعية فى البنجاب . وقد أجمع الخطباء فى ثنائهم على السياسة الحكيمة التى سار عليها فى وكنج ، وأشادوا بالأعمال التى أداها فى ديار الغرب للإسلام، وأهابوا بالناس أن يثابروا على العمل العظيم الذى بدأه فى بلاد الانجليز

وفى اليوم السابع عشر من آذار ١٩٣٣ جرى احتفال رائع بافتتاح المكتبة التذكارية وقاعة المطالعة الملحقة بها ، وقد أطلق عليها اسمه، وقد أقيم لها بناء ضخم ، آية فى الجمال ، وألحقتا بمسجد بيجام شاند بور تيرا فى البنغال . وقد كانت هذه المؤسسة الأولى من نوعها فى ذلك الوقت ، وسن لها نظام يشابه نظام وكنج للسير بموجبه فى أعمالها ومناهجها

وعقدت عشرات من الاجتماعات فى البلاد الإسلامية بعد عام ١٩٣٣ للاحتفال بذكرى وفاته ، ونشرت الصحف عشرات المقالات فى هذه الذكرى ، وقد جمع عدد كبير من هذه المقالات ، ووصفت تلك الاحتفالات فى عدد تذكارى من إسلامك ريفيو صدر

الله حى لا يموت »

وإذا كنا قد أشرنا قبل إلى أن الممتاز فى استعمال العبقرى على الطريقة الأولى لا بد أن يكون « رقما » فى عملية جمع حسابية كبيرة أو صغيرة ، فما أحرانا أن نشير إلى أنه يبدو فى استعماله على الطريقة الثانية «رقما» فى عملية ضرب حسابية سواء أكان المضروب فيه كبيراً أم صغيراً ، فكل رقم فى المضروب فيه الرقم الممتاز يبدو أعظم من حقيقته ، وحسبنا لفهم ذلك أن نقارن بين حالين لجماعة من الجماعات سواء كانت أمة أم قبيلة أم حزبا أم نقابة أم جيشاً : حالها وقد ولى أمرها رئيس عاجز ، وحالها والدير لأمرها رئيس كفء ، إن الجماعة فى حالها الأولى تبدو مختلفة اختلافا كثيراً عنها فى الحالة الثانية ، وقد تبدو فى الحالتين وكأنها جماعتان مختلفتان كل الاختلاف ، لا جماعة واحدة فى حالين لا اختلاف فيهما عليها إلا استبدال رئيس فرد برئيس فرد . والبينات من التاريخ على ذلك ولاسيما تاريخ الحروب ، فكثيراً ما فشل جيش فى مهمته بعد أن حاول النجاح فيها طويلا، فلم يكن من الحاكم إلا أن استبدل قائداً بغيره ، فنجح هذا الجيش فى مهمته ، كأنما أمده الحاكم بالألوف من الجنود والمدات ولم يمده بقائد فرد . إذ يبدو كل مقاتل تحت لواء القائد الممتاز وكأنه شريك قائده فى امتيازه ، وله منه مثل ماله . فالقائد هنا ليس رقماً جمع إلى أرقام، بل رقما يضاعف الأرقام التى تسند به أضعافاً بمقدار امتيازه . ولا تقل البينات على ذلك فى تاريخ الإدارة عنها فى تاريخ الحروب .

وما أشبه استعمال العبقرى أصحابه على الطريقة الأولى بإحراقنا عدة أرطال من الفحم تحت قدر لإنضاج ما فيها من الطبيخ واستعمالنا المراد بكميات كبيرة فى أغراض كثيرة كهذا الغرض ، بينما هباءات من الفحم تفنى فى إنضاج ملء مئات من القدور لو فجرت قواها تفجيراً ذريا ، وكذلك لو استعملنا تفجير الذرات فى نحو هذا الغرض كتسيير القطر والسفن وإدارة الآلات المختلفة لأغنى عن الكميات الكبيرة التى نستعملها من المواد فى هذه الأغراض، معشارها أو أقل منه ، واستعمال العبقرى صحابته على الطريقة الثانية يشبه استعمالا ذريا كما أشرنا هنا ، فقد يغنى الممتاز وحده فى موضع امتيازه ما لا تغنى أمة كاملة من غير الممتازين .

الكلام بقية

محمد خليفة التونسى

فى أبريل ـ أيار ١٩٣٣ ، ومما ورد فى ذلك العدد ملخص لمقال نشرته مجلة (ليث) قالت فيه :

لقد عودنا القراء فى مطالع كل سنة جديدة أن نقدم لهم رسالة ترفع أعينهم إلى النور ، ونحسب أننا فى هذه السنة لا نجد رسالة أروع من قصة موت جندى الإسلام الشهيد العظيم خواجة كمال الدين . إن قصة حياته لأبناء وبنات المسلمين أروع أمثلة البطولة ، ولكم نرجو لو أن كل نقطة من دم الراحل الذى سقط شهيداً تحت راية الجهاد ، تتحول إلى ينبوع فى القلوب يملؤها بحب الإسلام وإعلاء كلمته ، والتفانى فى خدمته

سجاياه العالية

كل ما ذكرناه عن شخصية خواجة كمال الدين لم يكن غير المظهر الخارجى الذى نستطيع أن نلمحه من وراء آثاره المكتوبة ومن النتائج الخطيرة التى انتهت إليها تلك الأعمال . وهذه الشخصية الجبارة لم يستطع النفوذ إلى بعض أسرار العظمة فيها غير أولئك الذين كانت لهم صلات مباشرة معه فى حياته وأعماله ولكى نفتح الباب الذى يؤدى إلى هذه الشخصية نقبس بعض الفقرات التى كتبها عنه أصدقاؤه المقربون . كتب المحامى الإنجليزى الشهير المستر بكتال فى سبيل التحدث عن رقته ، وجلده ، وحنانه ، وإنسانيته، يقول : « لقد ولد بالفطرة محاربا من الطراز النادر فى سبيل القضية التى وقف عليها حياته ، ولم يعترف بالهزيمة أبدا ، وكانت الابتسامة لا تفارق شفتيه ، وكان لا يرى غير الناحية المشرقة من الأشياء والناس ، سائرا فى طريقه قدما لا يلتفت وراءه ، يقابل كل خيبة أو فشل بإعادة آية من كلام الله .. لقد كان وفيا فى صداقته إلى أبعد حدود الوفاء ، لبقا ، كريم السجايا، وفوق كل شىء كان متزنا جدا . »

وكتب عنه زميله فى العمل الدكتور جيلان محمد من لاهور بالباكستان يقول : « وحتى وهو تحت وطأة المرض الشديد ، لا يستطيع الحراك من فراشه ، لم يتحلل من العمل المضنى الذى فرضه على نفسه . لقد كان صورة رائعة للجلد والاحتمال والصبر ـ وكأنه عمود من القوة والجبروت ، أو برج شاهق من النور يشع على ماحوله... كان وديعا، رائعا ، يفيض قلبه بالحب، وكان الإحساس يتدفق من طبيعة عميقة .... »

ولعل اللورد هدلى قد وفق فى التعبير عن عواطف الحزن العميقة حين لفه الموت فى صديقه الحميم؛ فعبر عن كل ذلك الحزن أو بعضه بكلمات تنفذ إلى مواطن الشعور من النفس الإنسانية ، فيها بساطة التعبير وعمق الإحساس . « نحن نبكى اليوم لفقد مسلم لا مثيل له فى العصر الذى نعيش فيه ... فلقد ترك أخونا العزيز وراءه مثلا جميلا لحياة طاهرة ، قضاها فى منفعة الآخرين فإن روح الإسلام قد أشرقت على جوانب تلك الشخصية العظيمة فغدت فوق الأرض نموذجا رائعا فى حياتها اليومية، فى خشوعها نحو الخالق . . لقد تلاقى فى تلك الشخصية النادرة ، قلب رحيم وعقل عبقرى ... لا أذكر أننى سمعته مرة يتفوه بكلمة تمس شعور أى إنسان ... وأولئك الذين كانت الظروف تسعدنى بتقديمه إليهم ؛ لم يلمسوا فى حديثه أو سلوكه أى شىء من التعب » ... وبعد أن يحدث اللورد هدلى عن المجهود الجبار الذى بذله فى التعليق على آى الكتاب الكريم ؛ يختم ذلك الحديث الرائع بهذه الكلمات ... « لقد وافتنى الظروف فاطلعت على طريقته فى تفسير كلام الله ، وكيف كانت حياته صورة حية لتلك المعانى الأبدية »

جهاده فى سبيل الإسلام

إن ما تركه اللورد هدلى فى آخر حديثه لينطبق تمام الانطباق على الطريقة التى سار عليها خواجة كمال الدين فى الخدمات الجلى التى قام بها لرفع لواء الإسلام . لقد أدرك جيدا أن نجاح أجدادنا فى صدر الإسلام لم ينبعث إلا من السير وراء تعاليم الدين ، وإن الأحفاد حينما استظلوا بغير لواء هذا الدين انقلبوا من غزاة تهتز الدنيا رعبا وهلعا من سيوفهم ، إلى جيل من العبيد ، لا يقام لهم وزن فى حساب الكرامة بين البشر ، وغدوا مجموعة من الجهلة المتأخرين ، بعد أن كانوا ينيرون ظلام العالم بمشعل العلم والعرفان ...

ولكن الخدمة التى أداها خواجة كمال الدين للإسلام لم تقتصر على فتحه الطريق المغلق إلى مرضاة الله فى وجوهنا ، وإنما دفعنا بسرعة فوق هذا الطريق بما بذل من جهود جبارة مستمرة جعلت هذا الطريق سالكا للسير ، وبما وضع فى بصائرنا من زاد التقوى . والوسائل التى مهد بها ذلك الطريق الوعر لم تكن غير آثاره الفكرية الرائعة التى لم نعرف عنها حق

الآن إلا القليل ، ومن أبرز تلك الآثار الحية مجلة إسلامك ريفيو والجمعية الإسلامية لإشاعة الإسلام في وكنج

لقد حاول آخرون قبله نشر الإسلام في أوروبا ، ولكن الله أراد أن لا يتم النجاح إلا على يدي خواجة كمال الدين . وعلى الرغم من مرور سبعة عشر عاما على وفاته فإن ثمرة ذلك العمل ما تزال في جدتها ، وكأنها من عمل الحاضر تتجدد على مرور الزمان ماثلة أمام أعيننا

لقد ذكر المستر مارما دوك بكتال مترجم القرآن إلى الإنجليزية وهو يتحدث عن هذا الأمر فيما يتصل ببلاد الهند ... « أن أعماله في إنجلترا ليست غير جزء من عمله العظيم ، ولم أستطع إدراك ذلك حتى أتيت إلى الهند فلمست الأثر المباشر لكتاباته عن مبادئ الدين ، وعملها في بعث الحياة في العالم الإسلامي الذي يغط في سبات الغفلة ، ليس في الهند فحسب وإنما في كل جزء من أجزاء العالم الإسلامي ، حيث أخذت الحمية والحماسة والوعي تأخذ طريقها إلى قلوب الأجيال الجديدة من المسلمين ... »

وقال المستر يعقوب خان « إن الأجيال الجديدة من المسلمين الذين تتلمذوا على الحضارة الغربية ، وقفوا مندهشين وهم يرون مبادئ الإسلام تنحني لها رقاب الطبقات التي تحكمهم خشوعا وإكبارا ، وتدخل في دين الله أفواجا ، فراحت تذوب من نفوسها رذائل الشعور بالنقص ، وأخذت تدرك أن الإسلام ليس الدين الذي يخجل الإنسان من اعتناقه . هذا هو العامل الأساسي الذي حفظ للاسلام شبابه من التدهور في مادية الغرب الإلحادية ، وأعادهم إلى حظيرة الدين الحنيف ... »

أما في بلاد الإنجليز . فقد أتم الله على يدي خواجة كمال الدين نصر الإسلام ، وأنمى دين الإنسانية الذي يعتز الناس بالانتساب إليه ، وجعل الإنجليز يدركون في سهولة ويسر المشاكل التي يتعرض لها العالم الإسلامي في علاقاته معهم

وإلباكستان — مسقط رأس خواجة كمال الدين — الدولة الإسلامية الفتية التي تسير في الطليعة رافعة علم الإسلام عاليا أمام العالم الإسلامي ، ليس لأنها أكبر دولة إسلامية ، بل لأن المسلمين فيها تدفعهم جميعا رغبة عنيفة ملحة لخدمة مبادئ الدين بأوسع ما في الخدمة من معنى ، وإلباكستان نفسها مدينة بما يضطرم في نفوس أبنائها المسلمين من الحماس الديني — إلى حد بعيد — إلى خواجة كمال الدين

لقد قدر لبعض الناس في سير الحياة أن يؤسسوا الممالك ويشيدوا أمجادا طواها التاريخ وألقاها في نهر الحياة المتدفق ليحملها إلى ما وراء الحياة مع أصحابها ، ولكن الله أراد أن يكون خواجة كمال الدين الدعامة التي قامت عليها نهضة الدين الحنيف ، ذلك الدين الذي يدعونا إلى محبة الذين حولنا ، وهذا الشعور هو أثمن ما ربحته الإنسانية في مسيرها الطويل من تراث خالد عظيم .

رحم الله خواجة كمال الدين رحمة واسعة . بما قدم للاسلام من خدمات ستبقى ما بقي الدين مشرقة مع الشمس والقمر . ذلك المجاهد الذي كان يقنع من دنياه بعائدة يستعملها في النهار للكتابة والطعام ، وينام عليها إذا أقبل الليل في وكنج

وحيا الله الأمة الباكستانية العظيمة التي أنجبت خواجة كمال الدين ، ومكن لها في دنياها ودينها ، ونصرها الحق ، وأمدها بروح من عنده

بغداد — أعظمية — علي محمد سرطاوي

مصلحة البلديات صيانه

تطرح بلدية المنصورة في المزاد العلني بيع ١٠٥٥٤ برميل أسفلت وتحدد ظهر يوم ٣١ مايو سنة ١٩٥١ موعدا للتزايد بديوان البلدية ومن يرسو عليه المطاء يقوم فوراً بدفع ٢ ٪ من قيمة عطائه بصفة تأمين نهائي

٨٢٥٠